«الراعي» أو «التاجر»، موضوع الصورة، كان لا يزال واقفاً في وضعه المبين منذ بدء الخليقة.

كذلك، فإن الكتاب نادر من حيث أنه يزودنا بسجل فوتوغرافي لقرية في فترة تاريخية معروفة من حياتها. ومن الطبيعي أن يكون لمجموعة الصور، لهذا السبب ذاته، عدد من النقائص اذا ما اعتبرت أدلة اجتماعية ــ تاريخية. فقد أخذت الصور جميعها بين عامي ١٩٢٥ و١٩٣١ عندما كان بعض أهم الأحداث السياسية يجري في المنطقة المحيطة. والواقع أن غرانكفيست تذكر أحداث الخليل في عام ١٩٢٩ بشكل عابر، ولكن ليس هناك ما يشير الى اتجاهات الناس ومواقفهم من هذه الأحداث أو من مسائل السياسة العامة في ذلك الحين. ولا يمكن للصور بطبيعتها أن تبدي شيئاً من هذا رغم أنها تشكل، من وجهة نظر اقتصادية، تسجيلاً لبعض السلع والمنتجات الجديدة التي كانت قد وصلت الى القرى في ذلك الحين. كذلك، وكما تشير كارين سيفر، «لم تسجل غرانكفيست في الصور غير الملامح الأكثر علانية لكل حدث أو احتفال. فكان من المستحيل أخذ الصور داخل البيوت دون اضاءة ولربما كان القرويون يعترضون على ذلك أو أن الدكتورة غرانكفيست امتنعت عن تصوير الأحداث الأكثر شخصية وخصوصية».

ولا تترك الصور في هذا الكتاب، عن حق، لتكلم عن نفسها، اذ يعزّز ما تبينه من الحياة اليومية بالنصوص التي كتبتها كارين سيفر، وبتعليقات مفصلة عن كل صورة. ومعظم النصوص مأخوذة اما مباشرة أو تلخيصاً من كتب غرانكفيست لاعادة ادماج الصور بالبحث الذي تنتمي اليه.

ولا شك في أن النص والصور يفيان ثروة المعلومات التي جمعتها غرانكفيست حقها بقدر ما هو ممكن ضمن المساحة المتوافرة في الكتاب. وكان على الصور، من بعض النواحي، أن تحل محل ثراء التواريخ الشفوية للأفراد، والتي أوردتها غرانكفيست مباشرة والأحاديث التي سجلتها في كتبها الأصلية، والتي تبعث في هؤلاء الأفراد الحياة. كذلك استخدمت غرانكفيست عدداً كبيراً من الأغاني الشعبية والقصائد والأمثال لتوضيح الدلائل التي كانت توردها، ومن سوء الحظ أنه لا يمكن افراد حيز سوى لعدد قليل من هذه الأشياء جميعاً في هذا الكتاب.

ويمكن، تلخيصاً، القول: ان عمل غرانكفيست الذي لا يزال، رغم حدوده الميثودولوجية جميعاً، واحداً من أبرز الأعمال الأنتروبولوجية التي تمت في فلسطين، خلال تلك الفترة، يشكل «صورة لقرية»؛ اضافة الى أنه، وبالقدر ذاته من الأهمية، يذكرنا بأن الصورة يمكن على الأقل في حالات كهذه أن تساهم بشيء هام في معرفتنا التاريخية وفهمنا للتاريخ.

لندن: **سارة غراهام ــ براون**